لا تقنطوا

إعداد وتقديم

أخوات الطريق إلى الله



الفهرس



قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" [الشورى:28].

قال ابن كثير: "وقوله: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا" أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: "وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ" [الروم:49]. "وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله" ((تفسير القرآن العظيم) لابن كثير: [206/7-207]).

ديننا الحنيف يدعونا إلى عدم اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، فالله عز وجل رحيم بعباده والمؤمن الحق يشكر الله عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة.

سوف نعرض لكم في هذا الكتيب بعضا من مظاهر رحمة الله بعباده والفرق بين اليأس والقنوط، وعواقبهما وكيفية التخلص منهما بإذن الله.

لا تنسونا من صالح دعائكم.

إعداد

أخوات الطريق إلى الله

اليأس من رحمة الله معناه وصوره

إن رحمة الله واسعة جدًّا، لا تحُدُّها حدود، و لا تتخيلها عقول، يطمع فيها المؤمن و الكفور، تتنزل على خلقه فإذا بها تضيء النفوس، و تجلو الهموم، و تُؤمل القلب المحزون؛ ففي الحديث: "إنَّ الله خلق الرَّحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة. وأرسل في خلقه كلِّهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكلِّ الَّذي عند الله من الرَّحمة، لم ييأس من الجنَّة، ولو يعلم المسلم بكلِّ الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النَّار" رواه البخاري، لذا كان اليأس منها أمرًا خطيرًا، و خلقًا ذميمًا، و معصية كبيرة؛ فهو يعدُّ من الكبائر، بل من أكبر الكبائر.

ولقد حذرنا القرآن الكريم من اليأس من رحمته تعالى؛ لأنها خصلة من الخصال المدمِّرة التي تُوردنا المهالك، قال الله جل جلاله حكايةً عن يعقوب عليه السلام حينما أوصى بنيه ولقَّنهم درسًا هامًّا من دروس النبوَّة في شَحْذ الهمم وتربية العزائم وتقوية الصلة بالله جل في علاه: "يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" يوسف: 87، قال ابن عباس: "لَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ": يريد من رحمة الله، وعن قتادة: من فضل الله، وقال ابن زيد: من فرج الله، وهذه الألفاظ متقاربة، وقرأ الحسن وقتادة: "مِن رُّوحِ اللَّهِ" – بالضم – أي: من رحمته، ثم قال: "إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ".

معنى اليأس من رحمة الله جل جلاله

اليَأْس: القُنوط، وقيل: اليَأْس نقيض الرجاء، يَئِسَ من الشيء يَيْئَس ويَيْئِس نادر، وقال ابن فارس: اليأس: قطع الأمل، قال: وليس في كلام العرب ياءٌ في صدر الكلام بعدها همزة إلا هذه، والمصدر اليَأْسُ واليَآسَة واليَأَس، وقد استَيْأَسَ وأَيْأَسْته، وإنه لَيَائِسٌ ويَئِسٌ ويَؤُوس ويَؤُس، والجمع يُؤُوس، ويَئِسَ أيضًا: عَلِمَ، ومنه: "أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا" الرعد: 31.

قال في لسان العرب: اليَأْس القُنوط، وقيل: اليَأْس نقيض الرجاء، يَئِسَ من الشيء يَيْئَس، والمصدر اليَأْسُ واليَآسَة واليَأَس، وقد استَيْئَسَ وأَيْأَسْته، وإنه لَيَائِسٌ ويَئِس ويَؤُوس ويَؤُس، والجمع يُؤُوس.

قال المطرزي: (يَئِس) منه فهو (يائسٌ)، وذلك (مَيْئوس) منه، و (أيأسْتُه) أنا (إيئاسًا): جعلتُه يائسًا، وفيه لغة أخرى: (أَيِسَ) و(آيسْتُه) أنا.

قال تعالى: "يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" يوسف: 87.

قال ابن كثير: نَهَّضهم وبشرهم، وأمرهم ألا ييئسوا من روح الله؛ أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه؛ فإنه لا يقطع الرجاء ويقطع الإياس من الله إلا القومُ الكافرون.

قال ابن جزي: "وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ" يوسف: 87؛ أي: من رحمة الله، "إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" يوسف: 87، إنما جعل اليأس من صفة الكافر؛ لأن سببه تكذيب الربوبية، أو جهلٌ بصفات الله من قدرته وفضله ورحمته.

وقال ابن جرير الطبري: "وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ" يوسف: 87، يقول: ولا تقنطوا من أن يروِّح الله عنا ما نحن فيه من الحزن على يوسف وأخيه بفرَجٍ من عنده، فيرينيهما، "إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ"، يقول: لا يقنط من فرَجه ورحمته ويقطع رجاءه منه "إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" يعني: القوم الذين يجحدون قُدرته على ما شاءَ تكوينه.

قال العسكري: (اليأْس: انقطاع الطمع من الشيء).

وقال ابن الجوزي: (اليأْس: القطع على أنَّ المطلوب لا يتحصل لتحقيق فواته)

-الإياس من رحمة الله، ومعناه هنا: انقطاع الرجاء والطمع في حصول رحمة الله بالكلية، وإلا فلو بقي معه أصل الرجاء لم يكن كفرا مخرجا من الملة.

صور اليأس من رحمة الله

وأما صور اليأس من رحمة الله فكثيرة، منها:

1- اليأْس والقنوط من مغفرة الله للذنوب.

2- اليأْس والقنوط من زوال الشدائد وتفريج الكروب.

3- اليأْس من التغيير للأفضل: ويتمثل في يأس الإنسان من تحصيل ما يرجوه في أمر من أمور الدنيا كجاه أو مال أو زوجة أو أولاد وغيرهم.

4- اليأْس من نصر الإسلام، وارتفاع الذُّل والمهانة عن المسلمين:

جاء في (الموسوعة الفقهية): اليأس قد ينضم إليه حالة هي أشد منه، وهي التصميم على عدم وقوع الرحمة له، وهذا هو القنوط، بحسب ما دل عليه سياق الآية: "وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ" فصلت: 49، وتارة ينضم إليه أنه مع اعتقاده عدم وقوع الرحمة له يرى أنه سيشدد عذابه كالكفار. وهذا هو المراد بسوء الظن بالله تعالى. وقد ورد النهي عن اليأس من الرزق في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لحبة وسواء ابني خالد: "لا تيأَسا منَ الرِّزقِ ما تَهزهَزت رؤوسُكما" صحيح.

وورد النهي عن القنوط بسبب الفقر والحاجة أو حلول المصيبة في مثل قوله تعالى: "وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" الروم :36،37. وورد النهي عن اليأس من مغفرة الذنوب في قوله تعالى: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" الزمر:53، فإن الله تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، فرحمته وسعت كل شيء. ومن أجل ذلك فالإنابة إلى الله تعالى مطلوبة، وباب التوبة إليه من الذنوب جميعا مفتوح للعبد ما لم يغرغر، أي حين ييأس من الحياة. اهـ.

هل يعد القنوط من رحمة الله كفرًا؟

من سنن الله عز وجل في هذه الحياة أن جعلها غير صافيةٍ من الكَدر؛ فنعيمُها ليس بدائم؛ بل فيها العطاء والمنع، والرخاء والشدَّة، والغِنى والفقر، وطالما يعيش الإنسان في هذه الحياة فهو معرَّض لتغيُّر الأحوال؛ من صحَّةٍ ومرض، رخاء وشدة، سَعة وضيق، ولا يضمن إنسانٌ منَّا أن يعيش حياةً خاليةً من المواقف الصعبة والظروف العصيبة؛ لأن دوام الحال من المحال، يقول الله عز وجل: "كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ" الرحمن: 29.

ولقد عاب الله عزَّ وجل على صِنف من النَّاس إذا فازوا بمقصدهم ووصَلوا إلى مبتغاهم، اغترُّوا وصاروا متمرِّدين على طاعة الله عزَّ وجل مبتعدين عنه، ولكن إذا نزلت بهم نازلة أو ألَمَّ بهم الخَطب، استولى عليهم الأسفُ والحزن واليأس، وكأنهم ما ذاقوا خيرًا قط، قال الله عزَّ وجل: "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا" الإسراء: 83.

"كَانَ يَؤُوسًا"؛ أي: قنط أن يعود يحصُل له بعد ذلك خيرٌ. تفسير القرآن العظيم (5/ 113) بتصرف.

حكم اليأس و القنوط

أجمع العلماء على تحريم اليأس والقنوط، ومن اليأس والقنوط ما يخرج من الملة، ومنه ما لا يخرج من الملة، وإنما هو من الكبائر، بل أشد تحريمًا من الكبائر الظاهرة كالزنا، وجعلهما القرطبي في الكبائر بعد الشرك من حيث الترتيب (انظر: (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي: [160/5]، (إحسان الظن بالله والتحذير من اليأْس والقنوط) لفهد بن سليمان الفهيد: [11/1-114]، (الزواجر عن اقتراف الكبائر) لابن حجر الهيتمي: [149/1]، (مدارج السالكين) لابن قيم الجوزية: [133/1]).

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "الكبائر أربع: الإشراك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله" (رواه الطبري في (تفسيره): [243/8]).

وقال العدوي: "الإياس من الكبائر" (حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني: [441/2]).

إذا قنط أحد من رحمة الله هل سيكون كافر كما في قوله عز وجل: "يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" يوسف:87.

دلَّت هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ اليأسَ والقنوطَ مِن رحمة الله تعالى مِن صفات القوم الكافرين، ولا يلزَم مِن هذا أنَّ مَن اتَّصفَ بصفةٍ مِن صفاتهم أن يكون كافرًا مثلهم. واليأس والقنوط مِن رحمة الله تعالى قد يكون كفرًا يخرج مِن مِلَّة الإسلام، وقد يكون كبيرةً من الكبائر.

والضَّابِط في ذلك:

1/ أنَّ اليأس إذا انعدمَ معه الرَّجاء في رحمة الله تعالى وفرجه وعفوه -له أو للنَّاس-، وكان إنكارًا واستبعادًا لسَعَة رحمته سبحانه ومغفرته وعفوه فهو كفرٌ؛ لأنَّه يتضمَّن تكذيبَ القرآن والنُّصوص القطعيَّة، وإساءة الظَّنِّ بربِّه تعالى؛ "إذ يقول - وقوله الحق -: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" الأعراف: 156، وهو يقول: لا يغفِر له! فقد حجَّر واسعًا. هذا إذا كان معتقدًا لذلك"؛ كما قال الإمامُ القرطبيُّ -رحمه الله- في «تفسيره».

2/ أما إن كان لاستعظام الذّنوب، واستبعاد مغفرتها والعفو عنها، أو بالنَّظَر إلى قضاء الله وأموره في الكون -كاليأس في الرِّزق والولد ونحوه-، مع عدم انعدام الرجاء؛ فهذا كبيرةٌ مِن أكبر الكبائر ولا يكون كفرًا.

وقد عُدَّ من الكبائر -بالإجماع-؛ لما ورَدَ فيه مِن الوعيد الشديد؛ كقوله تعالى: "إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" يوسف: 87، وقوله سبحانه: "قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ" الحِجر: 56. والله أعلم. موقع إسلام سؤال و جواب.

والحاصل أن اليأس من رحمة الله كبيرة من الكبائر وأنه صفة من صفات الكفار، ولا يلزم من الاتصاف بصفة من صفات الكفار أن يكون المرء كافرا بما في الكلمة من معنى، بل هو فاسق وإن أدى به الحال إلى إنكار سعة رحمة الله كان كافرا والعياذ بالله. والله أعلم.

الفرق بين اليأس و القنوط في القرآن الكريم

اليأس و القنوط هما: فقدان الأمل، و لكن في القنوط نجد أن الأمر يمكن أن يحصل بعد طول انتظار، أما في اليأس فنرى أن الأمر لن يتحقق فهو ميئوس منه.

عندما تحدث الله عز وجل عن القنوط قال: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" سورة الشورى: 28. فنجد بأن الناس قد قنطوا من نزول الغيث، ولكن الله تعالى ينزله وينشر رحمته بعدها.

وتتكرر مواضع ذِكر القنوط في القرآن الكريم نذكر منها: " قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ " الحِجر: 55. " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " سورة الزمر: 53.

فنرى أنَّ الذين قنطوا من رحمة الله يُبشرهم ربهم عز وجل برحمة منه وبالمغفرة وأن الله تعالى يأمرهم بعدم القنوط من رحمته.

و القنوط يكون مع الانتظار، فنرى الناس ينتظرون الغيث و يتأخر، وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان ينتظر الولد لكنه تقدم في العمر وكذلك زوجته.

فهذا معنى القنوط وشواهده من القرآن الكريم، أما اليأس كما ذكرنا فالأمر ميئوس منه لن يتحقق.

قال الله تعالى في اليأس: "وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا "سورة الطلاق: 4. "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" سورة العنكبوت: 23. "يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" سورة يوسف: 87.

ففي اليأس نرى عدم الانتظار للشيء و فقدان الأمل منه كما يحصل مع النساء المتقدمات في السن فييأسنَّ من المحيض، ولا ينتظرنه بعد طول انقطاع، وكذلك يئس الكافرون من رحمة ربهم عز وجل، فهم لا ينتظرون تلك الرحمة لأن الله تعالى لن يرحمهم.

ولكن يبقى أمر مهم جدًّا، فيمكن للإنسان أن ييأس من كل شيء إلا من رَوْح الله، روح الله، يبقى المدد الأخير للإنسان، كما قال يعقوب عليه السلام لأولاده أن لا ييأسوا و يذهبوا ليتحسسوا من يوسُف وأخيه.

فمهما حصل ومهما يئِسَ الإنسان أو قنطَ عليه أن لا ييأس من روح الله، فهي المعجزة التي تأتي دون انتظار.

عواقب اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى

نجد من آثار اليأْس والقنوط:

1- الفتور والكسل عن فعل الطاعات والغفلة عن ذكر الله: قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: (القانط آيس من نفع الأعمال، ومن لازم ذلك تركها). قال فخر الدين الرازي رحمه الله: (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا أي: إذا مسه فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كان يؤوسًا شديد اليأْس من رحمة الله، إن فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسي ذكر الله، وإن بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الأسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله تعالى، فهذا المسكين محروم أبدًا عن ذكر الله).

2- الاستمرار في الذنوب والمعاصي: قال أبو قلابة رحمه الله: (الرجل يصيب الذنب فيقول: قد هلكت ليس لي توبة. فييأس من رحمة الله، وينهمك في المعاصي، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، قال الله تعالى: "إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" يوسف: 87.)

3- سبب في الحرمان من رحمة الله ومغفرته: قال المباركفوري رحمه الله: (إن اعتقد أو ظن الإنسان أن الله لا يقبلها -أعماله- وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأْس من رحمة الله وهو من الكبائر، ومن مات على ذلك وُكِّل إلى ما ظنَّ، كما في بعض طرق حديث-: "أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي عبدي ما شاء").

4- سبب لفساد القلب: قال ابن القيم رحمه الله وهو يعدد الكبائر: (الكبائر: القنوط من رحمة الله، واليأْس من روح الله، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن).

5- ذهاب سكينة القلب والشعور الدائم بالحرمان والحزن والهَم: فـ (اليأْس من روح الله والقنوط من رحمته؛ يؤدي إلى ترك العمل، إذ لا فائدة منه بزعمه، وهذه طامة من الطوام، وكبيرة من كبائر الذنوب، تُخرج القلب عن سكينته وأنسه، إلى انزعاجه وقلقه وهمه).

قال الشوكاني رحمه الله: (إذا مسه- الإنسان - الشر من مرض، أو فقر، كان يؤوسًا شديد اليأْس من رحمة الله، وإن فاز بالمطلوب الدنيوي، وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة).

6- اليأْس سبب في الوقوع في الكفر والهلاك والضلال والإقدام على الانتحار: عندما ييأس الإنسان من رحمة الله عز وجل نتيجة وقوعه في الذنوب والمعاصي كثيرًا فييأس من التوبة أو عدم حصوله على ما يناله رغم كثرة سعيه فيه فينتابه الإحباط، وييأس من العودة ومن المحاولات، وييأس ممن حوله خاصةً ممن يوجهون له رسائل سلبية دومًا ما تؤثر فيه، فيرى أن الحياة لا فائدة منها، ووجوده بها لا قيمة له، وذلك لإهمال الوازع الديني الذي كان يوقظه حتى مات بداخله، فلم يجد له حلًّا ولا سبيلًا إلا التخلص من حياته هذه والإقبال على الانتحار ظنًّا منه أنه سيرتاح، ولكن اختار الراحة على حساب وقوعه في كبيرة وهو قتل نفسه.

قال القاسمي رحمه الله: "وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا" الإسراء: 83، إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال وهو حب الدنيا وإيثارها على الأُخرى، وكفران نعمه تعالى بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأْس من الفرج عند مسِّ شر قضى عليه.

قال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني رحمهما الله في تفسير قوله تعالى: "وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ" البقرة: 195: (الإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى).

"لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ"

"أملٌ نحيا به حتى نموت خير من يأس وقنوط يقتلنا قبل أوان الرحيل، إن الأمل الذي لا يخبو هو ذاك النور المقتبسُ من جذوة الإيمان، وهو الذي يضيء دروب الحياة حتى في الليالي الحالكات"، تلك كلمات قالها الشيخ سلمان العودة، وصدق فيما قال؛ فاليأس والقنوط يعكران صفو هذي الحياة. أتعجب كثيرا من أمر هؤلاء القانطين من رحمة ربهم، وأتساءل لم يقنطون؟

أليس "لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ" الروم: 4، أليس "حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" آل عمران: 173، "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ" الزمر: 36.

عندما رأى موسى –عليه السلام– البحر أمامه والعدو خلفه لم يستسلم وييأس بل مضى قدُما في طريقه وقال: "كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ" الشعراء: 62، فأنقذته الرعاية الربانية.

يرى نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– الأعداء أمام الغار؛ فيظهر ذاك الحين ثقته الشديدة برحمة ربه "إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" التوبة: 40، بل والأعجب من ذلك وهو مُطارد مُشرد يبشِّر سُراقة بأنه سيرتدي سوراي كسرى، يا الله ما أشدَّ هذا التفاؤل واليقين بكرم الله ورحمته!

ليس هذا فقط بل أوذي أشد الإيذاء، وكُذِّب أشد التكذيب، اتهم بعرضه وخُدشت كرامته، وطُرد من بلده، عاش يتيمًا وافتقر ومن شدة الجوع ربط على بطنه الحجر، قيل عنه: كذاب وساحر، ومجنون وشاعر، تُشجُّ رأسه، يُقتل عمه، ويلاحق بالحجارة؛ فماذا فعل –بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه–، لجأ إلى ذي الجبروت والملكوت، ولم يقنط من رحمة ربه –حاشاه–.

فيا من وقعت ببلاء ومحنة شديدين، ويا من تشكو مرضًا ألمَّ بكَ وأقعدك عاجزا –لدرجة رأيت معها أن الحياة انتهت وانطفأ نورها–

أليس لك في رسول الله قدوة؟ أليس لك فيه أسوة؟

ولتعلم أن نبي الله أيوب قد ابتلي بالمرض الشديد لثمانية عشر عاما، ولم يصبر أحد من إخوانه عليه وعلى طول بلائه إلا اثنين من أخص إخوانه، ولكنه كان ملتجئًا إلى ربه؛ طالبًا منه العون والسند "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" الأنبياء: 83، فجاءه الغوث من السماء "فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ" الأنبياء: 84، والفاء هنا للتعقيب؛ لتدل على سرعة استجابة الله؛ فهو القريب –سبحانه–.

بعد ما قرأته ألا ترفع يديكَ إلى السماء وتُلح على الله بالدعاء، أما تضع فيه كل الرجاء؟ فإنك –والله– لا تأوي إلى أي أحد، وإنما تأوي إلى "رُكْنٍ شَدِيدٍ" هود: 80.

أخي مهما ارتكبت من معاصي، ومهما أذنبت، ومهما أسرفت على نفسك؛ إياك والقنوط يومًا، ألم تسمع كلام خالقك: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" الزمر: 53، تأمل معي قوله: "يَا عِبَادِيَ" لم يتبرأ من العاصين والمذنبين بل نسبهم إليه –سبحان الله–، أي كرم هذا وأي رحمة!

ألا فلتُقبل إلى ربك سيقبلك، سيرحمك، قال –تعالى–: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" الأعراف: 156.

وأسوق إليك في ذلك أبياتًا تُثلج الصدور قالها الإمام الشافعي –رحمه الله–:

إن كنت تغدو في الذنوب جليدا *** وتخاف في يوم المعاد وعيدا

فلقد أتاك من المهيمن عفوه *** وأفاض من نعم عليك مزيدا

لاتيأسن من لطف ربك في الحشا *** في بطن أمك مضغة ووليدا

لو شاء أن تصلى جهنم خالدا *** ما كان ألهم قلبك التوحيدا

فلا تقنط أخي من رحمة الله، فلولا كَرْبُ الشدة ما رُجيت سعة الراحة، وتذكر كثرة نعم الله عليك، وادفع الحزن بالرضا بمحتوم القضا، فطول الليل وإن تناهى فالصبح له انفلاج، وآخر الهم أول الفرج، وما من شدة إلا ستهون؛ فهو –سبحانه– يعلم خلجات النفوس، وخواطر القلوب، والتفاتات تلك العيون.

ولا تقنط من رحمة الله، فتُخذل، وعليك بالضراعة إلى الله يزهو نحوك الفرج، وما تجرّع كأسَ الصبر معتصمٌ بالله إلا أتاه المخرج، يعقوب –عليه السلام– لما فقد ولدًا وطال عليه الأمد، لم ييأس من الفرج، ولما أُخذ ولده الآخر لم ينقطع أمله من الواحد الأحد، بل قال: "عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا" يوسف:83، فأكرمه الله، وأقرَّ عينيه برجوع يوسفَ إليه بعد فراق دام لسنواتٍ طوال.

إياك أن تقنط؛ فإن تقنط من رحمة ربك: فمن لك سواه في شدتك؟ من لك في بلواك؟ من لك تبثُّ إليه شكواك؟ من لكَ ينصرك، يؤيدك، يؤازرك؟

ألا أيها المسلم ليس لك غير خالقك ففرَّ إليه، وانطرح بين يديه، وقف ببابه وانكسر لجنابه، أتراه يردُّ عبدًا أتاه؟ لا والله حاشاه.

رحمة الله بعباده

الرحمة صفةٌ من صفات الله –عز وجل–، وهذه الرحمة كاملة لا يصيبها العجز أو النقص كما هي الرحمة الموجودة في قلوب بعض البشر.

وقد وسعت رحمة الله –تعالى– العباد في كل شيء، فلقد أرسل –عز وجل– الرسل والأنبياء إلى البشر من أجل هدايتهم وبيان طريق الصواب لهم رحمةً منه –عز وجل– بالعباد.

لم يعذِّب الله –عز وجل– المخطئين من دون أن يبيِّن لهم طريق الصواب وطريق الخطأ، ثم يسلك الإنسان ما يشاء وبناءً عليه تتم محاسبته، وقد كان هؤلاء الرسل والأنبياء رحيمين بالعباد ويدعونهم بالموعظة الحسنة بعيدًا عن التعصّب والكراهية والبغضاء، قال –تعالى–: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" الأنبياء: 107، وهذه الآية تدل –بشكلٍ واضِحٍ– على أنَّ الرسالة –التي يحملها الأنبياء والرسل– ما هي إلّا رحمةً من الله –تعالى– للعباد.

في يوم من الأيام وأثناء مرور النَّبي –صلى الله عليه وسلم– في أحد طُرق المدينة الضيِّقة وحوله حَشد من أصحابه –رضي الله عنهم–، تصادَف وجود صبيٍّ صغير يَلعب في ذلك الطريق، فلمَّا رأَت أمُّ الصبيِّ القومَ قادمين خشِيَت على ولدها أن يوطَأ من شدَّة الزحام، فأقبلَت إليه تسعَى وتهرول وهي تقول: ابني ابني، حتى أخذَته، فلمَّا رأى الصحابةُ ذلك المشهَدَ العاطفي قالوا: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنَها في النار! فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "لا، ولا يلقي الله حبيبَه في النَّار" رواه أحمد.

فالله –سبحانه وتعالى– هو الرحمن الرحيم، وهو أرحم الراحمين الذي وسعت رحمته كل شيء، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة" صحيح مسلم، لا شك أن هذا الحديث يتعجب منه الكثير وهو يحتاج منا وقفة، بل وقفات كثيرة.

فإذا كانت كل الرحمات في هذه الدنيا إنما هي رحمة من مائة رحمة فكيف بالبقية..؟!

أما عن الرحمة في معناها اللغوي فقد قال ابن منظور:

الرحمة: الرقّة والتّعطّف. والرحمة: المغفرة. والرحمة: الرزق والغيث. والرحمة في بني آدم: رقّة القلب وعطفه. ورحمة الله: عطفه، وإحسانه، ورزقه.

أما في الاصطلاح:

فالرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية؛ فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك، ولو شق عليك في ذلك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه، ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة بعض الأمهات.

ولكن نجد أن رحمة الله شيء آخر تماما، فالرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد ، وإن كرهتها نفسه ، وشقت عليها ، فهذه هي الرحمة الحقيقية ، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك ، ودفع المضار عنك ، ولو شق عليك في ذلك ، يرسلها متى شاء، ويمسكها متى شاء فلا أحد يملك الإرسال، ولا أحد يملك المنع، قال -تعالى-: "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " فاطر:2.

وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال : "قدم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذا وجدت صبيا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ ، قلنا: لا، والله! وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لله أرحم بعباده من هذه بولدها" صحيح البخاري ومسلم.

وصور رحمه الله بعباده كثيرة، ولا تقف رحمة الله -تعالى- عند مغفرة الذنوب، بل تمتد لتشمل كل نواحي الحياة وشئون الإنسان؛ فما بين الزوجين من مودة وسكينة ومشاعر حانية، هو من رحمة الله -تعالى- قال الله: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" الروم: 21.

وفي الحديث التالي ندرك رحمة الله -عز وجل- بالعصاة والمذنبين "إن الله يُدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته." صححه الألباني، كل هذا يحمل الإنسان على الحياء من الله والمسارعة بالتوبة لينال الرحمة.

وليست هذه الرحمة الغامرة في الدنيا فقط، بل إن الرحمة الأعظم والأشمل ستكون يوم القيامة، وهذا ما بشَّرنا به سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ" صحيح مسلم.

إن الأمر غير مُتخيَّل فعلاً، والله -عز وجل- جعل الرحمة يوم خلق السموات والأرض، أي أنه جعلها قبل أن يَصدُرَ أمرٌ إلهيٌّ بأفعال العباد، بل قبل أن يخلقهم أصلًا، وهذا من عظيم فضله، وواسع جوده. بل إن النص القرآني العظيم يشير إلى أن هذه الرحمة قد كتبها ربنا على نفسه، قال تعالى: "كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" الأنعام: 54، إنها الحقيقة التي لا ريب فيها، يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: "قضى -سبحانه- أنه بعباده رحيم، لا يَعْجَل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا من الله -تعالى ذِكرُه- استعطاف للمُعرِضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة".

ومن رحمته: أن أحدنا لن يدخل الجنة بعمله، وإنما لابد أن يتغمدنا الله -تعالى- بفضل منه ورحمة، فعلينا أن نسدد ونقارب، وإنما الأعمال بخواتيمها، "وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ" فاطر: 45، ولكن يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها.

ومن روائع ما قد قاله أحد الأئمة: "لا تسئم من الوقوف على بابه ولو طردت، ولا تقطع الاعتذار ولو رددت؛ فإن فُتح الباب للمقبولين فادخل دخول المتطفلين ومد إليه يدك وقل له مسكين فتصدق عليه فإنما الصدقات للفقراء والمساكين".

فاللهم اشملنا برحمتك وعفوك يا رب.

أمثلة وآيات تدل على رحمة الخالق ولطفه بعباده

رحمة الله عز وجل بعباده كبيرة رحمته شملت جميع خلقه، المؤمن والكافر، الإنسان والحيوان، ومن رحمته أن جعل لعباده المؤمنين الموحدين رحمتين رحمة عامة لجميع الخلق ورحمة خاصة بهم، رحمن بجميع خلقه رحيم بعباده المؤمنين قال جل في عُلاه "وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" الأحزاب: 43.

وقد ذُكِرَ وتكرر اسْم "الرَّحْمَن" في القرآن حوالي 57 مرة واسم "الرَّحِيم" 114 مرة.

ومن رحمته عز وجل أن خلقَكَ وكرمك وسخر لكَ من الدوابِّ لتخدمك وتستفيد من أوبارها وصوفها وجلدها فقد قال جَّل في علاه: " وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " النحل 5: 8.

انظر إلى رحمته وكيفية تدبيره لأمور خلقه وعباده، فالإنسان في هذه الدنيا معرض للخير والشر، فقد اقتضت سنة الله أن يختبر عباده ويبتليهم ليختبر صبرهم، قال تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ" محمد: 31.

عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – يقول: "جعل الله الرحمة مائة جزء؛ فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها؛ خشية أن تصيبه" أخرجه البخاري.

إنه من باب التبشير بفرج الله عز وجل وبث روح الأمل والتفاؤل في النفوس.

وفيما يلي نسوق لكم قصصًا واقعية تشهد على أن الله يفرج على عباده، وأن اليأس والقنوط قاتلٌ ومُهْلِكٌ لكل نفس على هذه الأرض.

الشفاء بعد طول المرض!

كم هي الحالات التي قد يصاب بها بعض الناس وييأس من شفائه! تلك المرأة التي انتشرت قصتها وقد أصيبت بمرض السرطان! وقد عجزت فنون الطب عن علاجها، وأخبروها أن بينها وبين الموت عدة شهور، فأسلمت أمرها إلى الله وتوجهت إلى بيت الله العتيق، وسجدت بين يديه هناك تدعوه أن يشفيها، ثم أخذت بماء زمزم وشربته بنية الشفاء فكانت المعجزة أن ذهبت تلك الأورام، وعادت إلى المستشفى ليقولوا لها: لا يمكن أن تكوني أنتِ المرأة التي كانت مصابة بمرض السرطان! صدقت مع الله ولم تيأس وتقنط لما أصابها فصدقها الله واستجاب لها.

مريض يصاب بغيبوبة لسنة، تزوره زوجته وولده كل يوم في الصباح والمساء، عَجِب الأطباء منهما، ما فائدة هذه الزيارات!

قالت: نحن نأتي لندعو له، ونرجو الله خيرًا، بعد سنة ونصف يفاجأ الأطباء بذلك الذي في غيبوبة ميئوس منها إذ به يتحرك ويفتح عينيه ويقوم ليجلس، وإذ بزوجته تدخل وتراه قد استقبلها.

قال لها الأطباء: هل كنتِ تتوقعين يومًا أن تَريه كذلك؟

قالت: نعم، ما دعوت الله يومًا إلا وأنا موقنة أن الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

دعت ربها وانتظرت الإجابة مع أنها لم تُستجب في التو واللحظة ولكنه استجاب في الوقت الذي يراه عز وجل مناسبًا.

وإليكم قصة قدوتنا التي نتعلم منها العفة:

إنها قصة الصديقة التقية النقية قصة مريم عليها السلام، مرت بمواقف كثيرة رأت فيها رحمة الله تعالى، ومرت بمواقف كثيرة شديدة لكن لم تيأس ولم تقنط.

ولدت مريم عليها السلام يتيمة فتربت في بيت خالتها ومع زوج خالتها سيدنا زكريا عليه السلام وكان هذا من رحمة الله تعالى بمريم، ورعايته لها. قال تعالى: "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا" سورة آل عمران: 37، وشبت مريم عليها السلام وبيتها المسجد، وخلوتها فيه، ومن عجيب قدرته ورحمته أن رزقها فواكه الشتاء في أيام الصيف، وفواكه الصيف في أيام الشتاء! وكلما زارها زكريا عليه السلام وجد ذلك الرزق العجيب الذي رزقها الله به فيقول لها: "يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ" فتقول: "هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" سورة آل عمران: 37، هذا مظهر من رحمة الله بها أن يمن عليها بمن يكفلها وهي صغيرة وبعد ذلك رزق الله لها.

موقف آخر من حياة مريم، كانت المحنة الكبرى لمريم عليها السلام العابدة الزاهدة البتول أن يبشرها الله سبحانه وتعالى بولد منها وهي غير ذات زوج فقالت: "أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا" سورة مريم: 20، وحاولت دفع هذا عن نفسها، ولكن جاءها الأمر الإلهي: "قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا" سورة مريم: 21، وتخرج مريم عليها السلام وبدأ الحمل يظهر عليها وبدأت تشعر بالخجل وتتوارى من أعين الناس تحاول أن تتخفى خشية من الفضيحة فهي مريم العابدة كيف تحمل من غير زواج وتذهب مريم بعيدًا عن أعين الناس حتى جاءها المخاض: "قالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا" سورة مريم: 23، واقتربت مريم من جذع النخلة ووضعت سيدنا عيسى عليه السلام، وهنا تتجلى رحمة الله تعالى بمريم فهناك لا يوجد بشر، هيَ وحيدة هيَ ورضيعها، كم كانت ضعيفة مرهقة من بعد الولادة تحتاج لمن يرعها ويأتي لها بالطعام والشراب ولكن الله أرحم بها من البشر.

فيناديها مولودها من تحتها "أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا" مريم: 24، والسريّ هو نهر يُشْرب منه، "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا" سورة مريم: 25، 26، ويفجر الله من تحتها الماء كي تشرب وتهز مريم جذع النخلة وهي ضعيفة، ولكن ليعلمنا الله ويعلمها التوكل عليه والأخذ بالأسباب، هزة منها تتساقط عليها الرطب، كم أنت رحيم يا الله بعبادك.

علاج القنوط من رحمة الله تعالى

ومما يعالج به القنوط من رحمة الله عز وجل ما يلي:

1. الإقلاع عن المعصية، والمبادرة في التوبة إلى الله سبحانه وتعالى، والإسراع إليها، وعدم التسويف فيها، ودليل ذلك أن الله عز وجل أمر به بعد النهي عن القنوط فقال تعالى: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ " الزمر: 53، 54.

وقد قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: "من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأناب إلى الله، وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنبه، وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة. والغالب أنه لا يوفق للتوبة، ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم قائم ويقين، متهاونًا بنظر الله إليه، فإنه يسد على نفسه باب الرحمة".

2. حُسن الظن بالله عز وجل من أقوى ما يُدفع به القنوط من رحمته، وقد حثّ النبي صلى الله عليه وسلم، على حسن الظن بالله حيث قال: "لا يَمُوتَنَّ أحدكم إلا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ" صحيح مسلم.

3. النظر إلى سعة رحمة الله عز وجل ومغفرته، وعظيم فضله وبره، وكريم جوده وإحسانه مما يعين على البعد عن القنوط، فكيف يقنط من علم أن رحمة الله عز وجل وسعت كل شيء؟ حيث قال تعالى: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" الأعراف: 156.

4 – الإيمان بأسماء الله وصفاته: فالعلم والإيمان بأسماء الله وصفاته، وخاصة التي تدلُّ على الرحمة، والمغفرة والكرم والجود، تجعل المسلم لا ييأس من رحمة الله وفضله، فإذا علم العبد، وآمن بصفات الله من الرحمة، والرأفة، والتَّوْبة، واللطف، والعفو والمغفرة والستر وإجابة الدعاء؛ فإنه كلما وقع في ذنب؛ دعا الله أن يرحمه ويغفر له ويتوب عليه، وطمع فيما عند الله من سترٍ ولطفٍ بعباده المؤمنين، فأكسبه هذا رجعة وأوبة إلى الله كلما أذنب، ولا يجد اليأْس إلى قلبه سبيلًا، كيف ييأس من يؤمن بصفات الصبر والحلم؟! كيف ييأس من رحمة الله من علم أنَّ الله يتصف بصفة الكرم والجود والعطاء؟

5– تعلق القلب بالله والثقة به: فلا يليق بالمسلم أن ييأس من روح الله ولا يقنط من رحمته، ولا يكون نظره مقصورًا على الأمور المادية والأسباب الظاهرة، بل يكون متلفتًا في قلبه في كل وقت إلى مسبب الأسباب، إلى الكريم الوهاب، متحريًا للفَرَج، واثقًا بأن الله سيجعل بعد العسر يسرًا.

6– الإيمان بالقضاء والقدر: فإذا علم المرء وأيقن أنَّ كل ما حصل له هو بقضاء الله وقدره استراح قلبه، ولم ييأس لفوات شيء كان يرجوه، أو لوقوع أمر كان يحذر منه، قال تعالى: "مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" الحديد: 22.

7 – الصبر عند الابتلاء: وذلك أن الله سبحانه ذم اليائسين من رحمته عند حصول البلاء، واستثنى من الذم الصابرين على البلاء، وجعل لهم الثواب العظيم.

8– الدعاء مع الإيقان بالإجابة: قال تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام لما عوتب في تذكر يوسف عليه الصلاة والسلام بعد طول الزمان وانقطاع الأمل وحصول اليأْس في رجوعه، قال بلسان المؤمن الواثق في وعد الله برفع البلاء عن الصابرين وإجابة دعوة المضطرين، "قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" يوسف: 86.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسولَ اللهِ كيفَ يستعجِلُ؟ قال: يقولُ قد دعَوْتُ فلَمْ يُستجَبْ لي فينحسِرُ عندَ ذلكَ فيترُكُ الدُّعاءَ" صحيح ابن حبان.

9 – الزهد في الدنيا: أسباب اليأْس والقنوط الأساسية، تعلق القلب بالدنيا والفرح بأخذها، والحزن والتأسف على فواتها بكل ما فيها، من جاه، وسلطان وزوجة وأولاد ومال وعافية..إلخ، فاعلم أنَّ الله سبحانه يعطي الدنيا لمن لا يحب ومن يحب، ولا يعطي الآخرة إلا لمن أحب، وقد منع أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الدنيا وما فيها، فخرج وما ملأ بطنه من خبز البر ثلاث أيام متواليات، وأنَّ المرء لن يأخذ أكثر مما قدر له فلا ييأس ولا يقنط لفوات شيء.



قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" [الشورى:28].

قال ابن كثير: "وقوله: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا" أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: "وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ" [الروم:49].

"وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله"

((تفسير القرآن العظيم) لابن كثير: [7/206-207]).

ديننا الحنيف يدعونا إلى عدم اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى،

فالله عز وجل رحيم بعباده والمؤمن الحق يشكر الله عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة.

سوف نعرض لكم في هذا الكتيب بعضا من مظاهر رحمة الله بعباده والفرق بين اليأس والقنوط، وعواقبهما وكيفية التخلص منهما بإذن الله.

▮ لا تنسونا من صالح دعائكم.

إعداد

أخوات الطريق إلى الله